فكاهات

رواية

الهوى العذري[1]

كان لعهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا رجلٌ من نبلاء الفرنسويين وارفعهم مقاماً واعظمهم شرفاً من أُسرة قديمة العهد طائلة الثروة بعيدة الشهرة اسمهُ الكنت لافير وكأَن الخالق سبحانهُ قد جعل هذا الكنت مجمع الكمالات فكان جميل الخلقة رحب الصدر متدبراً في الامور من اعظم الفرسان واشدهم بأساً اذا نطق فحكمة او جلس فللتفكر في امرٍ حميد او سار فالى مجدٍ ينالهُ او خدمةٍ تنفع بلادهُ . وكان للكنت لافير ولدٌ وحيد اسمهُ راعول اقبل الكنت عليهِ بعد وفاة زوجتهِ فانحصرت محبتهُ في هذا الولد وكان جل اهتمامهِ ان ينشأ ولدهُ هذا على خطتهِ بل ان يفوقهُ في كمالهِ ولم تكذبهُ امانيُّهُ فشبّ الولد وهو صورة ابيهِ لا يختلف عنهُ في شيءٍ من السجايا والصفات الا ان ذاك شيخٌ وهذا فتىً . وبعد ان اتم الكنت تربية ولدهِ قدمهُ الى الخدمة العسكرية فكان لهُ من شرف اسرتهِ وعلوّ همتهِ وقوّة ذراعهِ واقدامهِ وسائط عظيمة رفعتهُ في اعين رؤسآئهِ حتى بلغ خبر نجابتهِ وبسالتهِ مسامع الملك فقربهُ اليهِ وجعلهُ من رجال بلاطهِ

(١) ملخصة عن الفرنسوية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وكان بالقرب من قصر الكنت منزلٌ لأُسرةٍ اخرى كانت من العيال الشريفة وقضى رأسها مخلفاً زوجةً وابنةً تدعى لويز ولما اصبحتا بدون نصير اخذت امورهما في التأخر والانحطاط . وكانت لويز تتردد في صغرها الى حديقة الكنت فيقابلها راعول ويتمشيان معاً يتنزهان في الحديقة ولما طالت العشرة بينهما تولدت في قلبيهما جراثيم المحبة ولبث الحب يزداد بينهما الى ان شبّا . ولحظ الكنت من ابنهِ تعلقهُ بالفتاة فلم يُسَرّ من ذلك لا لعدم ميلهِ الى لويز فانهُ كان يجلّ تهذيبها ويودّ اسرتها ولكنهُ خشي ان يكون ذلك شاغلاً لهُ يمنعهُ من التفرغ لطلب العلى والفخر ورأى راعول من والدهِ عدم موافقة على ميلهِ فجعل يقلل من اجتماعاتهِ بلويز الا ان ذلك لم يكن الاّ ليذكي نيران الشوق في قلبيهما ويزيدهما وجداً وهياماً

ورجع راعول يوماً بعد ان فاز في معركةٍ شهيرة وهو يجدّ السير لمقابلة والدهِ ولما اشرف على القصر رأى لويز ممتطيةً جواداً وهي تتنزه في تلك الغياض فلما ابصرتهُ علت وجهها حمرة الحب واضطربت جوارحها ثم وثبت عن ظهر الجواد لتقابل حبيبها وكأنها لم تنتبه في وثبتها واتفق وجود حجر أمامها سقطت رجلها عليهِ فكُسرت فلم يكن الا كلمح البصر حتى كان راعول بجانبها فرفعها بين ذراعيهِ الى ظهر الجواد ونقلها الى بيت والدتها وبعد ان لبث هناك حيناً امتطى جوادهُ واسرع الى بيت والدهِ . فلما رآهُ الكنت سرّ بلقياهُ وعانقهُ ملياً لكن رآهُ كئيباً مشتت الافكار فسألهُ عما بهِ فاخبرهُ بما جرى واستأذنهُ فارسل طبيبهُ الخاص لمعالجة الفتاة فكان يزورها كل يوم الى ان تعافت تماماً . واجتمع راعول بوالدهِ يوماً فاطلعهُ على ما في

قلبـهِ من الحب للويز وقال لهُ قد لاحظت انك غير راضٍ من حبي هذا فاذا كان لديك مانع فلا أحبَّ اليَّ من طاعتك اما انا فقد وهبتهـا قلبي ولن استرجعهُ ما حييت . فقال الكنت ليس لي ما اقولهُ في ذلك يا ولدي وانمـا احب ان لا تتشاغل منذ الآن بهذه العلائق التي تعوقك عن بلوغ المقام السامي الذي اودّهُ لك . وبعدُ فاني اظن انك متى ازددت تخرُّجاً في البلاط الملوكي ترى من السيدات الشريفـات والاميرات من تكون اوفق لك واقرب الى مقامك من هذه الفتاة . فقال راعول لا تقل ذلك يا ابي فسعادتي الحصول على لويز فاذا فزت في الحرب كانت هي نجم نجاحي ولاجلها اسعى واذا رمت منزلة رفيعة فلا يدفعني الى ذلك الا افتكاري ان اوصل اليها لويز فهي مناي وهي املي . ولما رأى الكنت اصرار ولدهِ على محبة الفتاة وكان كما اسلفنا يحبهُ الى ان لا يريد كسر ارادتهِ في شيء صمت ثم دخل غرفتهُ وجثا فصلى طالباً من الله ان يحفظ ولدهُ ويقدر لهُ ما بهِ الخير

ولما اصبح راعول في البلاط الملوكي لم تعد تمكنهُ الاحوال من لقـاء حبيبتهِ الا نادراً فكان في هذا النادر يبث لها ما يقاسيهِ في بعادهِ وتشرح لهُ ما ألم بها في غيابهِ . وحدث في ذلك الحين ان اقترن اخو الملك لويس بالاميرة هنريت شقيقة كارلس الثاني ملك انكلترا فسعت لويز الى ان تعينت سيدة شرف عند الاميرة المذكورة وجاءت القصر الملكي ولما علم راعول بذلك سُرَّ سروراً عظيماً وعادت اجتماعاتهُ بحبيبتهِ كالعادة فكان يتمكن ان يراها كل يوم ان لم يتسنَّ لهُ ان يخلو بها او يجالسها

وكانت الاميرة هنريت على جانب عظيم من الجمال والرقة فشغف بها

الملك لويس واحبها الى ان اهمل امور مملكتهِ واصبح للاميرة كظلها واشتهر امرهُ معها حتى بلغ مسامع والدتهِ وزوجتهِ وشقيقهِ . ولما كان مقام المُلك ارفع من ان يصل اليـهِ تعنيف استمرّ الملك لويس على حبهِ الى ان كان ذات يومٍ خارجاً من غرفة الاميرة وبينما هو سائرٌ في الرواق الموصل الى غرفتهِ سمع صوتاً رخيماً منبعثاً من احدى الغرف وكأن في الصوت قوة ساحرة استوقفت الملك جبراً فاعار اذناً صاغية واذا بفتاةٍ تقول ولكن ما ظنكِ يا لويز بحب الملك للاميرة هنريت وهل تعتقدين انها تحبهُ . فاجابت ربة الصوت العذب لا اشك في انها تحبهُ ومن يا ترى من جنسنا اذا رأت طلعتهُ البهية وجمالهُ الرائع وكمال جسمهِ لا تغرق في بحر محبتهِ . اما انا فانني لم اعرف للحب معنىً ولا للعشق مغزًى حتى رأيتهُ لاول مرةٍ فكانهُ مغناطيسٌ جذبني اليـهِ وعلقني بهِ فان نمت او قمت او مهما فعلت ارى الملك لويس المحبوب في انسان عيني وضمن قلبي . ثم انقطعت عن الكلام وسمع الملك تنهداتها الحارّة وضحك صاحبتها منها فسار وقد شغلت قلبهُ ربة الصوت وما صدَّق ان عاد في الصباح الى زيارة الاميرة وفي اثنآء الحديث سألها عن سيدات الشرف اللواتي عندها فقدمتهنَّ اليهِ باسمآئهنَّ ولما ذكرت لهُ اسم لويز تفرس الملك في الفتاة فتحقق لاوَّل نظرةٍ انها اجمل نسآء مملكتهِ . اما لويز فعند اقترابها من الملك اثرت فيهـا عواطف الحب فالقت بنظرها الى الارض وفاض الدم الى وجهها فزادهُ رونقاً وجمالاً ورأى الملك اضطرابها وخفقان قلبها فلم يخفَ عليهِ امرها اما الاميرة فنسبت ذلك الى رهبة الملك وسموّ مقامهِ . وكانت تلك النظرة كافية للملك بعد

ما سمع بالامس فتحولت محبتهُ الى الفتاة واُولع بها ولعاً عظيماً فعزم ان يجعلها حظيةً لهُ مهما حال دون ذلك . ولما علم ان الفتاة هي خطيبة راعول استدعاهُ وارسلهُ برسالة مهمة الى البلاط الانكليزي وامرهُ ان يبلّغها في اسرع وقت . ولم يكن من السهل على راعول ان يفارق لويز ولكن لم يسعهُ ايضاً مخالفة امر الملك فودعها وسافر على نية الرجوع السريع . غير ان رسالة الملك كانت للملك كارلس يقول لهُ فيها ان حامل رسالتي هذه من اعيان بلادي واحب تعيينهُ سفيراً لمملكتي في انكلترا فارجو ان تكرموا وفادتهُ ما امكن وتجتهدوا في تحبيب انكلترا اليهِ حتى ينسى فرنسا . فلما ادى راعول الرسالة لبث ينتظر الجواب والامر بالرجوع ولكن كارلس لم يسمح لهُ بذلك وهو يؤجلهُ من يومٍ الى آخر ولما نفد صبرهُ اخبرهُ الملك انهُ لا يستطيع الرجوع الى فرنسا الاَّ بطلب من الملك لويس فجعل راعول ينتظر الامر المذكور من يومٍ الى آخر وهو على احرّ من الجمر

اما الملك لويس فبعد ان ابعد راعول تفرغ لمجاملة لويز فكان يقيم الولائم وحفلات الرقص والصيد والنزهة وما شاكل ذلك فيجمع اليهِ كل من في بلاطهِ من رجال ونسآء بقصد ان تكون لويز بينهم فيخلو بها مسامراً او يسير الى جانبها متوددًا . ورأت الاميرة هنريت ميل الملك الى وصيفتها بعد ميلهِ اليها فاشعلتها نار الغيرة وحب الانتقام فابتدأت اولاً بمراقبة لويز ومواراتها عن نظر الملك ما استطاعت غير ان حبهُ لم يكن ليقف امام هذه الموانع الطفيفة فلم يعدم الوسائل التي تنيلهُ زيارة لويز كل يوم . ولما اعيت الاميرة الحيل كتبت الى اخيها كارلس تقول لهُ حال وصول كتابي

هذا أرجع راعول الى فرنسا فان رجوعهُ يترتب عليهِ امرٌ مهمّ يعود الى راحتي وهنآء المملكة . وكتبت الى راعول على ورقةٍ اخرى بدون توقيع هذه الكلمات « تعالَ الى باريز وانظر ماذا يجري في غيابك » ولما وصلت الرسالتان تعجب كارلس من لهجة شقيقتهِ ولم يفهم منها شيئاً فاستدعى راعول وامرهُ بالسفر في الحال . وكان راعول في مدة غيابهِ قد ارسل عدة كتب الى حبيبتهِ ولم يفز بجواب فما كانت كلمات الاميرة الا لتزيد هواجسهُ وبلبالهُ فبرح لندرا في صباح يومهِ وهو يود ان يطير طيراناً فبلغ باريز بعد ظهر اليوم الثاني وصعد توًّا الى غرفة حبيبتهِ لويز فقرع بابها ثم فتحهُ واذا بالملك لويس جالس والى جانبهِ لويز متكئة على صدرهِ وعيناها شاخصتان اليهِ . ولو انقضّت صاعقة على رأس راعول ما كانت لتؤثر فيهِ كما اثر هذا المشهد فاغلق الباب بلطفٍ وعاد بسرعةٍ فذهب الى غرفتهِ وجلس وهو لا يدري اين هو . وبعد ان مضت عليهِ عدة ساعات فُتح باب غرفتهِ فنظر واذا بلويز داخلةٌ اليهِ وقبل ان ينطق بكلمة أُلقت بنفسها على قدميهِ وقالت لهُ بربك يا راعول اغفر لي . وشعر راعول بعوامل تمزق صدرهُ ولكنهُ كتم ما بهِ واطرق ببصرهِ ولم يفه ببنت شفة . وكانت لويز لا تزال جاثيةً امامهُ ودموعها تتحدر على خديها فقالت احببتك يا راعول حباً لا تجهل مقدارهُ وانما كان حبي لك محبة اخت ولم ادرِ ما هو الحب الحقيقي حتى رأيت الملك لويس فاحببتهُ . انا عالمة انني قد خنت عهودك واذنبت اليك واستحققت مقتك ولكن ما العمل فخيرٌ لي ان اتركك من ان اكون معك وقلبي ليس لك . وقد اسأت اليك ايضاً بعدم اخبارهِ

اياك بما طرأ عليَّ قبل الآن ولكن ضعف عزيمتي وخوفي ان يؤثر عليك الخبر منعاني حتى الآن فاستحلفك بالله ان تصفح عن ذنب لويز التي احببتها نخانتك وان تنسى اثمها فهل تسامحني . — ولبثت تنتظر جوابهُ مدة اما راعول فكان كالصنم الاصم ولم يفتح فاهُ . وبلغ تهيج الفتاة ان سقطت امامهُ فاقدة رشدها فنادى راعول خادمهُ وامرهُ ان يحملها الى عربتها التي تنتظرها في الخارج . وغلبت عليهِ ذكرى حبهِ فتقدم ليزوّدها قبلة الوداع ولكنهُ وقف فجأةً فقال لا لا . انا لست لويس الرابع عشر لاكون سارقاً . وبعد ان خرج الخادم بها ركب راعول عربةً اخرى وسار الى بيت ابيهِ

وكان الكونت لافير والد راعول مطلعاً على جميع ما جريات القصر وهو يحرق الأُرَّم غيظاً من خيانة لويز وتعدي الملك ولا يدري بأي طريقة يبلغ راعول الامر أو كيف يتلافاهُ . فلما دخل راعول عليهِ علم لدى وقوع نظرهِ على وجههِ انه قد اطلع على كل شيء فجعل يهوّن عليهِ ويسليهِ جهدهُ فلم يفز وعاف راعول الملذات والملاهي بل كان لا يسأل عن طعام ولا رقاد حتى ذبل جسمهُ وتغير لونهُ واصبح على شفا الدمار وكان والدهُ يراهُ كذلك فينفطر قلبهُ . ولبث الامر على ذلك الى ان انتشر خبر سفر الدوك بوفور الى شمالي افريقيا لمحاربة العرب فتهلل وجه راعول فرحاً ولم يلبث ان طلب الانضمام الى جيش الدوك وعلم الكونت لافير غرض ولدهِ من هذا التطوع فسعى جهدهُ في صرفهِ عن عزمهِ فلم يفلح . ولما رأى ان لابد من ذلك صحبهُ الى منزل الدوك بوفور وكان صديقهُ الحميم فاوصاهُ بهِ ثم ودَّع الكونت ولدهُ وكان كلما سار احدهما بضع خطوات يرجع فيقبل الآخر

بحرارة كانهما عالمان ان هذا الفراق لا ملتقى بعدهُ

وبعد سفر راعول اصبح الكنت لافير عرضةً للاكدار وكانهُ رأى ان راعول قد استحال عليهِ سلوّ لويز فعزم ان يسلوها بالموت وتصور لهُ ان ابنهُ سيموت بعيداً عنهُ ولا يراهُ فكانت هذه الافكار تزيدهُ حزناً فانحطت صحتهُ واصابتهُ حمّى شديدة كانت تشتدّ عليهِ يوماً فيوماً فتزيد بلآءهُ . ورأى ذات يوم حلماً اذا براعول على جوادٍ ابيض يسير امامهُ وهو مكلل بالغار فاندفع عليهِ ليصافحهُ فمنعهُ ذاك قائلاً ليس هنا يا ابي فاتبعني ولم يزل سائراً حتى حجبهُ الغمام فاستيقظ الكنت مذعوراً . وفي اليوم نفسهِ ورد اليهِ رسول من الدوك بوفور ودفع اليهِ رسالةً فقرأها والدموع تحجب كلماتها عن بصرهِ وكان فيها ما يأتي

عزيزي الكنت . اكتب اليك بدم القلب لا بالمداد خبر موت شقيق الروح راعول . فقد حافظت عليهِ محافظتي على حدقة العين في جميع المواقع التي جرت الى ان كان موعد الهجوم على قلعة الاعدآء فهجم راعول في طليعة فرقتهِ بدون اذني ولما رأيت ذلك خطراً اصدرت امري لهم بالرجوع فاطاعتني الجنود اما راعول فنظر اليّ نظر الكاسف واستمرّ في هجومهِ الى ناحية السور فاستعملت كل ما في امكاني لارجاعهِ فلم يفعل فامرت الجنود ان يقتلوا جوادهُ من تحتهِ ففعلوا ولما سقط الجواد امتشق راعول سيفهُ وهجم ماشياً على اقدامهِ . ولما رأيت ذلك امرت كافة كتائبي بالهجوم دفعة واحدة لانقاذهِ وكانت بيننا وبين العدو معركة عظيمة لم اشاهد مثلها في حياتي كان فيها النصر لنا وخفقت رايتنا على اسوار القلعة . اما راعول فلم اقف لهُ

على اثر الى المسآء حيث وجدهُ الجند مطروحاً بين القتلى وفي جسمهِ جراح عديدة وهو لا حراك بهِ فحملوهُ اليَّ واستدعيت له امهر اطبآئي فوجدوا ان فيهِ بقية حياة فامرتهم بمعالجتهِ ووعدتهم باثمن الهبات ان شفي . ولكن ابى القدر الا معاندتي فانهُ لم يستفق الا لحظة واحدة فاخرج من جيبهِ خصلة من الشعر الذهبي فادناها من فمهِ ثم القاها بيدهِ على قلبهِ واسلم الروح . وقد امرت بنقل جثتهِ اليك فكن رجلاً كما اعهدك ايها الكونت العزيز ولا ترزح تحت هذا المصاب وان يكن ثقيلاً وتحقق اني فعلت كل ما يمكن عملهُ ولكن وقع القدر فانا اشاطرك الاسف وابكي على الدوام حبيباً واخاً »

ولم يستطع الكونت ان يأتي على تمام الرسالة فسقط على السرير فاقد الرشد ثم افاق فقال كلا لست في حلم بل انا في يقظة وهو يناديني فهآء نذا ياولدي . ثم رفع يدهُ كمن يصافح احداً وعاد فاطبق عينيهِ واسلم الروح

ولما وصلت جثة راعول دُفنت مع جثة والدهِ في حديقة القصر حيث لم يبرح خادمهما الامين والموكل على القصر يغرس على قبرهما الورود والرياحين ويسقيها كل يوم بدموعهِ

. . . . . .

وكانت تأتي فتاةٌ بلباس اسود تزور الضريح في كل مسآء — وتلك الفتاة هي لويز بعد ان غادرها الملك لويس وانصرف الى غيرها — فتسكب العبرات السخينة على شهيدين كانت هي السبب في ايصالهما الى القبر بخيانتها وغرورها فنزلت بهما من اوج السعادة الى حضيض التراب